النص وآليات قراءته من منظور بول ريكور في كتابه:
«Du Texte à L'action – Essais d'herméneutique, 2 »

د/ عبد الخالق رشيد
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة وهران

المحاولة التي تنطوي عليها هذه الصفحات تتناول مفهوم النص ونمطية تأويله وآليات قراءته عند "بول ريكور" وهي عبارة عن قراءة في كتابه:

«Du Texte à L'action – Essais d'herméneutique, 2 »

الصادر في نوفمبر 1986. والكتاب هو مجموعة مقالات ألفت ما بين 1970 و1985؛ أي بعد تأليفه لكتاب:

Conflit des interprétations» – صراع التأويلات» الصادر سنة 1969. وقد وزِّعت هذه المقالات على مجموعات كالتالي:

1. من أجل فينومينولوجيا تأويلية:
Pour une phénoménologie herméneutique
2. من تأويلية النصوص إلى تأويلية الحدث:
De L'herméneutique des textes à L'herméneutique de L'action
3. الأيديولوجيا والطوباوية والسياسة: *Idéologie, utopie et politique*

وقد عوّلنا في مداخلتنا على المجموعة الثانية، وهي المجموعة الأكثر التصاقا بالنص والكتابة والتأويل. ومن خلال المقالات المنضويّة

تحت هذه المجموعة يحاول "ريكور" اختبار إمكانية تعميم تأويلية النص لتشمل الحدث « *L'action*»، والمقصود به الحدث المعبّر عنه في الأجناس المختلفة للعلوم الإنسانية. ولم يُقدم على ذلك إلاّ بعد أن أخضع مفهوم التأويل لدراسة نقدية شرَّح فيها نظريات سابقيه لاسيما شلايرماخر وديلتاي وغادامير، ثمّ بدأ في التأسيس لنظريّته في التأويل انطلاقا من المأزق الّذي وقع فيه مَن سبقه من الفلاسفة الألمان على وجه الخصوص؛ وأهمها العجز في الجمع بين مفهومي التفسير والفهم *Explication*» / *Compréhension*» ضمن الحلقة الهرمينوطيقية، والّذي من أجله ظهرت هذه الحلقة وكأنّها حلقة مفرغة «*Cercle vicieux* » . وللوصول إلى مبتغاه اضطر "ريكور" إلى أنْ يعدّل الغاية التي يجب أنْ ينصبّ عليها التأويل، ثمّ البحث عن الوسيلة الّتي تمكّن كلا من التفسير والفهم من أنْ يتكاملا ضمن منظور جدلي.

وعليه فالمحاولة تتناول . إذا. مفهوم النص ونمطيّة تأويله والآليات المسخّرة لقراءته، بعد التعريج على علاقة النص بالكتابة، على اعتبار أنّ تدخّل الكتابة في تثبيت الخطاب يشكّل العامل الأساسي في ميلاد النص وبروز دور القارئ في توجيه دلالته من خلال آليات التأويل التي سيتقمّصها على مرّ العصور.

ولابدّ أنْ نسجّل هنا الصعوبات التي يجدها منْ يحاول الإمساك بآراء "ريكور" في هذا الكتاب، والتي يمكن اختزالها فيما يلي:

1. عمق الفكرة وكثرة الاستشهاد بنماذج من الثقافة الغربية، لاسيما عند اليونان.
2. صعوبة لغته من حيث بناء الجملة وتنسيق العبارات داخل الفترة.

3. إحالته على جمع من الفلاسفة الألمان واعتماد مصطلحاتهم، ممّا يضطر القارئ إلى اعتماد القواميس الألمانية الفرنسية والعكس، وهو توظيف تشوبه كثير من النسبيّة.

أ- الكتابة والنص:

ينطلق "ريكور" في سبر أغوار العلاقة بين الكتابة والنص من معاينة أوّلية مبسّطة مفادها أنّ النص هو خطاب مثبّت بواسطة اللغة، مما يؤدّي إلى اعتبار أنّ كلّ نص كان في وقت ما خطابا، وأنّ كلّ مكتوب هو في الأصل كلام منطوق. وبالتالي سيتموقع النص، في علاقته باللغة، في الوضعية نفسها التي يتحقق بها الكلام. فهل يسمح ذلك بالاستنتاج أنّ وظيفة الكتابة هي تحقيق الديمومة للكلام فقط؟ انطلاقا من هذا التساؤل يشرع "ريكور" في استقصاء عالم الكتابة ضمن العلاقة بين الكتابة والنص والخطاب.

يلاحظ "ريكور" مبدئيّا أنّ الظهور المتأخّر للكتابة قد أحدث تغييرا جذريّا في العلاقة بين العبارة والخطاب، وهو التغيير الّذي يمكن اختصاره في أنّ الكتابة أصبحت تسجّل مباشرة، ضمن علامات خطّية ما يريد الخطاب قولَه؛ بمعنى أنّ ليس هناك مقصديّة فخطاب شفهي فكتابة فنص، وإنّما مقصديّة فكتابة فنص، ومن هذه الوضعية تولّدت وظيفة القراءة والقارئ، الّتي تختلف جذريّا عن وظيفة التخاطُب، حيث الحضور العيني للمخاطِب والمخاطَب[1]. ولنستمع إلى "ريكور" وهو يقول موضّحا هذه العلاقة الجديدة الّتي أوجدها فعل الكتابة: «وبالفعل، فإنّ العلاقة بين كتب وقرأ ليست حالة خاصّة منبثقة عن العلاقة بين تكلم/أجاب. فهي ليست علاقة تخاطب (محادثة)؛ ولا تتوفّر فيها وضعية الحوار. فلا يوجد حوار بين القارئ والكاتب من خلال عمله الفني. ليست القراءة فعلا

حواريا، لأنّ الحوار هو تبادل للأسئلة والأجوبة، وليس ههنا تبادل من هذا النوع بين الكاتب والقارئ، فالكاتب لا يجيب القارئ، ففعل الكتابة وفعل القراءة هما شقّين يفصل بينهما العمل الفني؛ القارئ يكون غائبا لحظة الكتابة، والكاتب يكون غائبا لحظة القراءة[2]».

ولأجل ذلك يلاحظ "ريكور" أنّ الحوار الّذي يجريه القارئ مع العمل الفني يكون، في أحيان كثيرة، مخالفا بشكل ملفت للنّظر مع الحوار الذي قد ينعقد بين القارئ والكاتب بخصوص عمله الفني. ويخلص "ريكور" من ملاحظته هذه إلى القول:« يحلو لي في بعض الأحيان القول بأنّ قراءة العمل الفني لا تكون مجدية إلاّ إذا اعتبرنا كاتبه في عداد الموتى... وبالفعل فإنّ علاقة القارئ بالعمل الفني لا تكون تامة ولا سليمة - إن صحّ التعبير- إلاّ بعد الموت الفعلي للكاتب؛ إذ لا يمكن للكاتب أن يجيب، ولا تبقى سوى قراءة عمله[3]».

وبعد مناقشة مطوّلة للعلاقة بين الكتابة وميلاد النص كعالم قائم بذاته، ينتهي "ريكور" إلى الملاحظة بأنّ «الكتابة إجراء مشابه للتلفّظ، موازي للتلفّظ، إجراء بديل عنه، بل يعترضه- إن صحّ التعبير- ولذلك أمكننا القول، بأنّ ما تثبته الكتابة هو الخطاب بوصفه نيّة القول(*L'intention de dire*). وأنّ الكتابة هي تسجيل مباشر لهذه النيّة (أو هذا القصد)... هذا التحرّر لفعل الكتابة يعدّ بمثابة عقد الميلاد للنصّ[4]». وستكون لميلاد النصّ تداعيات تجعله يختلف كلّية عن الخطاب الشفهي، سواء من حيث العلاقة بين اللغة والعالم، أو من حيث العلاقة بين اللغة ومختلف الذاتيات المعنوية؛ ذاتية الكاتب وذاتية القارئ[5]؛ يقول "ريكور" شارحا العلاقات الجديدة الّتي أوجدها النص بعد تحرّره من المشافهة: «في الكلام الحيّ يتجه المعنى المثالي لما نتلفّظ به صوب الإحالة

الحقيقية المتمثّلة في "عمّا نتكلّم"(CE SUR QUOI ON PARLE)، بل قد تتداخل هذه الإحالة مع الإشارة حيث يلتقي الكلام بالحركة الّتي تكشف عن الشيء المتحدّث عنه، فيتلاشى المعنى في الإحالة، وتتلاشى الإحالة في الإشارة. وليس الأمر كذلك عندما يحتلّ النص مكان الكلام، حيث يتم اعتراض حركة الإحالة باتجاه الإشارة، في الوقت الذي يُقطع الحوار من قبل النص[6]». ثمّ يسارع "ريكور" إلى تصحيح قوله ليركّز على أنّ مصطلح "الاعتراض" (على إحالة الكلمات على الأشياء وإمكانية الاستعانة بالإشارة إليها) لا يعني الإلغاء (إلغاء الإحالة عند التحوّل من الخطاب الشفهي على النصّ)، إذ لا يوجد نص بلا إحالة، غير أنّ تحقيق إحالة النص هي بالضبط مهمّة القارئ ووظيفة التأويل[7].

لكن لماذا يتوجّب على القارئ أن يحقّق إحالة النص بواسطة التّأويل؟

في إجابته على هذا السؤال، يوضّح "ريكور" بأنّ النص حينما يعترض حركة الإحالة على الخارج تكفّ الكلمات عن الإحالة على الأشياء، وتتحوّل إلى مجرّد كلمات تعبر عن ذاتها، وبالتالي تكون قابلة لأن تؤوَّل، ومن هنا تبدأ نشأة عالم النص، الّذي يستدعي الفهم.[8]

لكن ما الّذي يعرض نفسه على الفهم في النص؟ يقول "ريكور" في ردّه على هذا التساؤل: «إنّ ما يعرض نفسه على الفهم في النص ليس هو مَن يتكلّم خلف النص[9]»؛ وبتعبير آخر ليس هو الكاتب؛ لأنّ فهم النص ليس هو فهم الكاتب من خلال إنتاجه، ولا هو إعادة صياغة المسار الإبداعي الّذي ولّد النص، كما يعتقد شلايرماخر (*schleirmacher*) وأنصار التّأويل الرومانتيقي.[10] وإنّما الّذي يعرض نفسه على الفهم هو ما يتحدّث عنه

النص، أو ما يعبَّر عنه بشيئية النص (*la chose du texte*)، وما هذه الشيئية إلاّ ذلك النوع من العالم الّذي يعرضه النص على القارئ.[11]

ب- من الفهم والتفسير إلى التأويل:

لكن ما المقصود بالفهم عند "ريكور" وما هي طبيعة العلاقة الّتي تربطه بصنوة "التفسير" ؟

في بحثه الطويل والمتأنّي لهذه الإشكالية يبدأ "ريكور" بعرض رؤية سابقيه؛ لاسيما أولئك الّذين ينتمون إلى ما يمكن نعتهم "بالهرمينيوطقا الرومانسيّة" ومن بينهم "شلايرماخر" و"ديلتاي". إنّ الزوج فسّر/فهم أو (التفسير/الفهم) في طرح هؤلاء يتميّز بالثنائية والإقصاء؛ بمعنى أنّ كلاهما يقصي الآخر، ذلك أنّهما ينتميان إلى مجالين مختلفين تماما من عالم الواقع هما: مجال علوم الطبيعة بقوانينها العلمية الصارمة الّتي تستند إلى المنطق الاستقرائي (*logique inductive*)، وهو الّذي تستند إليه كلّ عملية شرح وتفسير، والمجال الثاني هو مجال علوم الروح المتعلّقة بالحياة النفسية (*le psychisme*)، وهي من العلوم التي يغلب عليها الظن والتخمين المبني على استقراء النفس لذاتها. والفهم عند هؤلاء هو مجال عالَم النفس؛[12] يقول "ديلتاي":« الفهم هو المسار الذي نتعرّف به على شيء ما نفساني الطابع بواسطة علامات محسوسة يتجلّى ضمنها[13] ». وعليه فإنّ التأويل عنده «هو فنّ الفهم مطبّقا على هذه التجليات (تجليات النفس في العلامات) والشهادات والمعالم التي تعدّ الكتابة طابعها المميّز[14] ». ينبثق هذا المفهوم النّفساني لعمليّة الفهم من رغبة الإمساك بالكاتب من خلال عمله الفنّي وإعادة بناء المسار الإبداعي الذي انسلّ منه النص، كما سبق الذكر. فالغاية القصوى للتأويل عند "شلايرماخر" هي أن يُفهَم الكاتب بكيفيّة أفضل ممّا فهم نفسه.

La fin dernière de l'herméneutique est de mieux comprendre l'auteur qu'il ne s'est compris lui-même.[15]

وهاهنا، يخالفهم "ريكور"، فالطرح الجديد لفعل القراءة عنده وعند من سار في الدرب نفسه، يذهب إلى أنّ القراءة لا تسعى إلى فهم الكاتب ولا إلى فهم عمله من خلاله، فلا علاقة للقراءة ألبته بمقصديّة المؤلّف، وأن سعي القارئ ينحصر في مساءلة النص عن عالم النص؛ يقول "ريكور" موضّحا: لا يقتضي فهم نصّ ما التلاقي مع كاتبه *Ce n'est pas rejoindre son auteur*." إنّ الانفصال بين الدلالة (وهي من فعل القارئ) والمقصديّة تُنشئ وضعيّة مبتكرة تتولّد عنها جدليّة التفسير والفهم[16] ». وما التأويل من هذا المنظور إلاّ استلاب مقصديّة النص. فالعلاقة بين التفسير والفهم هي علاقة جدلية عند "ريكور"، كما أنّها علاقة تكامل بحيث أنّ كلّ واحد منهما يستدعي الآخر[17].

لكن كيف يمكن لهذه العلاقة أن تتسم بالطابع الجدلي التكاملي؟ وماذا يقترح "ريكور" لتحقيق هذا التكامل؟

يعتقد "ريكور" أنّ جدليّة العلاقة بين الفهم والتفسير ممكنة التحقيق في حالة ما إذا تأسّس التفسير على منطلقات تنتمي إلى الحقل الطبيعي للنص ألا وهو الحقل اللساني، عوض الاعتماد فيه - كما هو الشّأن عند سابقيه- على مناهج علوم الطبيعة كما سلف الذكر، إذ في إمكان اللسانيات أن تزوّد المحلل بنموذج سميائي لتفسير النصوص يعتمد على علامات النص وحدها؛ من خلال نظامها العلائقي وأداءاتها الوظيفية، دون إحالة على ما هو خارج السياج اللغوي.[18] وذاك هو ما يُعرف بالتحليل البنيوي. وبالفعل يعتقد "ريكور" أنّه في الإمكان اعتبار التحليل البنيوي للنص نوعا من القراءة الأوّليّة التي « تسعى إلى مقاربة

النص بالتمركز داخل النص وفي حدود سياجه؛ فالنص - من خلال هذه الرؤية- ليس له خارج، وإنّما له داخل فحسب، وليس له مقاصد استعلائيّة (*Visées transcendantes*)[19] ».

هذا النموذج التفسيري ليس ممكنا فحسب، بل وشرعيّ أيضا لأنّه لا يحيل على حقل معرفيّ أجنبيّ عن الحقل اللغوي. وبتطبيق هذا النموذج في تفسير النصوص يمكن القول مع "ريكور" أننا شرحنا النص (من خلال مستوياته ونظامه العلائقي والأداءات الوظيفيّة)، على طريقة تحليل الأسطورة من قبل "كلود ليفي شتراوس"، وتحليل الحكاية من قبل "بارت" (*Barthes*). إذن باعتماد هذا النموذج نكون قد حلّلنا النص بشرح طريقة اشتغاله، لا أنّنا أوّلناه،[20] لأنّ داخل هذا النمط التحليلي يبقى النص نصّا والقراءة لا تخترقه إلاّ باعتباره نصّا ذا دلالة معلقة. إنّها قراءة تمدّد وتقوّي التوتّر الّذي يعيّن إحالة النص على محيط العالم،[21] ذلك أنّه يُمنع على البنيوي أن يُعَلِّق أو يؤوّل، فالنص بالنسبة له هو مجال مغلق على ذاته، وعلى المحلّل أن يبقى في إطار النص فلا يغادره.

فإذا استقرّ أنّ هذه القراءة المفسّرة أو الشارحة ممكنة التطبيق على النص، وأنّها تكشف عن الكيفية الّتي يشتغل بها النص، أصبح من الممكن، في اعتقاد "ريكور"، أنْ نرُدف هذه القراءة الأوّليّة بقراءة ثانية، الهدف منها تمديد فعل القراءة إلى حدود يمكن معها رفع النقاب عن الجانب المعلق في القراءة الأولى، وإنهاء النص بالكشف عن مستوره. وعلى هذا المستوى يتموقع الاتجاه الحقيقي للقراءة.[22]

ولا يمكن إجراء هذه القراءة إلاّ إذا اعتبرنا أنّ النص ليس مغلقا على ذاته، بل مفتوحا على شيء آخر. ومهمّة التأويل هي بالذات البحث

عن هذا الشيء الآخر بالاعتماد على نتائج القراءة الأولى؛ القراءة الشارحة المترتبة عن التحليل البنيوي.[23]

فبواسطة القراءة الثانية (القراءة التأويليّة) «يعثر النص "المحيّن" (*actualisé*) على محيط وحضور، ويمكن القول - عندئذ- أنّ النص قد استعاد حركته الإحالية، باتّجاه العالم وباتجاه الفاعلين، الّتي كانت معلقة. والعالم هاهنا هو عالم القارئ، والفاعل هو القارئ ذاته[24]». وبالتالي يمكن القول مع "ريكور": «إنّ النص الذي كان يمتلك معنى فحسب؛ أي علاقات داخليّة وبنية، قد أصبحت له دلالة؛ أي أنّه تحقّق ضمن الخطاب الخاص بالفاعل القارئ، وأنّه لم يكن للنص من خلال معناه إلاّ بعدا سيميولوجيا، وقد أصبحت له، بفضل دلالته، بعدا دلائليا[25]».

هذا التكامل بين القراءتين يسمح لنا - كما يرى "ريكور"- اعتبار التحليل البنيوي ضربا من التأويل السطحي الساذج - إن صحّ التعبير- غير أنّه ضروريّ لقراءة تأويليّة نافذة، تغوص في العمق (عمق النص). وإذا كان الأمر كذلك « يبدو - إذا- أنّه من الممكن موقعة التفسير والتأويل ضمن قوس هرمنيوطيقي واحد[26]». فهما متكاملان لا يقصي أحدهما الآخر. ممّا أدّى بريكور إلى لاستنتاج أنّ «التفسير هو استخلاص البنية؛ أي علاقات التبعية الداخليّة التي تشكّل الجانب القار في النص، أمّا التأويل فهو سلوك الممر الفكري الذي يفتحه النص[27]». أمّا فهم النص فيتمثّل في اقتفاء الحركة من النص باتّجاه الإحالة، أو ممّا يقوله النص نحو الشيء الذي يتحدث عنه. ومن التحليل السابق يظهر أنّ الدور الذي يلعبه التحليل البنيوي يشكّل في الوقت نفسه تبريرا للمقاربة الموضوعية، وتصحيحا للمقاربة الذاتية.

خاتمة:

لابدّ من الاعتراف بأنّ القراءة التي قدّمناها لجانب من الكتاب القيِّم لبول ريكور « *Du texte à l'action* » تبقى قراءة جزئيّة تحتاج إلى التعميق، بالانفتاح على مفاهيم أخرى أساسيّة في القراءة التّأويليّة، كالاستحواذ أو الاستلاب « *L'appropriation* » والمباعدة أو المسافة « *La distanciation* » من جهة، والانفتاح على نصوص أخرى لريكور نُشرت في مجلاّت وكتب مستقلّة من جهة أخرى. وذاك هو مبتغانا من خلال ما نحضِّره من دراسة لفكر "ريكور" التأويلي وترجمة للكتاب الذي اعتمدناه في هذه الدراسة إن شاء الله تعالى.

مصادر ومراجع البحث

1. PAUL RICŒUR – Du texte à l'action – Essais d'herméneutique 2 – ED Du Seuil – 1986 – P 1 38.
2. IBID – P 139.
3. Ibid – P 139.
4.Ibid – P 139.
5. Ibid – P 140
6. Ibid – P 140 / 141.
7. Ibid – P 141.
8. Ibid – P 141.
9. Ibid – P 168.
10. Ibid – P 144.
11. Ibid – P 168.
12. Ibid – P 142 / 143.
13. Ibid – P 143.
14. Ibid – P 143.
15. Ibid – P 144.
16. Ibid – P 199.
17. Ibid – P 165.
18. Ibid – P 146, 149 et 167.
19.Ibid – P 146.
20. Ibid – P 149/ 207.
21. Ibid – P 149.
22.Ibid – P 151.
23. Ibid – P 152.
24. Ibid – P 153.
25. Ibid – P 153.
26. Ibid – P 155.
27. Ibid – P 156.
28. Ibid – P 208.